هابك الليل والنهار

خرج أبو الطيب إلى جبل جرس فنزل بأبي الحسين علي بن أحمد المري الخراساني وكان بينهما مودة بطبرية فقال يمدحه :

[الخفيف]

لَا افْتِخَارٌ إِلَّا لِمَنْ لَا يُضَامُ
مُدْرِكٍ أَوْ مُحَارِبٍ لَا يَنَامُ(١)

لَيْسَ عَزْماً مَا مَرَّضَ الْمَرْءُ فِيهِ
لَيْسَ هَمًّا مَا عَاقَ عَنْهُ الظَّلَامُ(٢)

وَاحْتِمَالُ الأَذَى وَرُؤيَةُ جَانِيـ
ـهِ غِذَاءٌ تَضْوَى بِهِ الأَجْسَامُ(٣)

ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الذَّلِيلَ بِعَيْشٍ
رُبَّ عَيْشٍ أَخَفُّ مِنْهُ الحِمَامُ(٤)

---

(١) بدأ الشاعر قصيدته المدحية برأي شخصي ينمّ عن فهمه لواقع الحياة في حال اختلال المفاهيم الإنسانية، حيث يفتقد المجتمع إلى العدل ويعمّ الظلم، عندئذٍ يكون الفخر للقادر على دفع الظلم عن نفسه بقدرته على ظلم الآخرين، تلك هي نظرة المجتمع الجاهلي التي سادت آنئذٍ في حال تفكك الدولة العباسية وتغلّب الديلم على مقاليد الأمور في مجتمع غلبت عليه الأثرة والفساد. فالقادر على حماية نفسه لا ينام، وهو أبداً محارب ليحصل على ما يبغيه من مطالب.

(٢) مرّض: قصّر. الهمّ: ما عزمت فيه. يُردف الشاعر أن المقصّر لا يُعدّ من الأقوياء ذوات الإرادة والعزم؛ فالأقوياء لا يحول دون أهدافهم مهما كانت المعضلات، فهم القادرون على تحقيق ذلك بالصبر والإرادة والتصميم، عندئذٍ يتربّعون قمم الحياة.

(٣) تضوى: تهزل. يرى الشاعر أن تحمّل الأذى من قبل الآخرين والعادة عليه تميت في المرء إحساس الكرامة، فيستسلم إلى الذلّ ويتلاشى شيئاً فشيئاً ويموت ببطء مكسور الخاطر.

(٤) غبط: رغب وتمنّى وسعى أن يكون على شاكلة غيره. الحمام، بكسر الحاء: الموت. يرى الشاعر أن الذلّ عدوى شنيعة النتائج، فمَن وجد راحة نفسه بذلّ رآه في غيره فسوف يموت ذليلاً حقيراً، والأفضل للمرء أن يموت بكرامته، وهنا لا بدّ من مجابهة الضعف في الحياة وإلّا فالموت ستر لضعف النفوس الضعيفة، وخير لهم من حياة لا طعم لها ولا رائحة ولا أهداف نبيلة.

كُـلُّ حِـلْـمٍ أَتَـى بِـغَـيْـرِ اقْـتِـدَارٍ
حُـجَّـةٌ لَاجِـئٌ إِلَـيـهَـا الـلِّـئَـامُ(١)
مَـنْ يَـهُـنْ يَـسْـهُـلِ الـهَـوَانُ عَـلَـيـهِ
مَـا لِـجُـرْحٍ بِـمَـيِّـتٍ إِيـلَامُ(٢)
ضَـاقَ ذَرْعـاً بِـأَنْ أَضِـيـقَ بِـهِ ذَرْ
عـاً زَمَـانِـي وَاسْـتَـكْـرَمَـتْـنِـي الـكِـرَامُ(٣)
وَاقِـفـاً تَـحْـتَ أَخْـمَـصَـيْ قَـدْرِ نَـفْـسِـي
وَاقِـفـاً تَـحْـتَ أَخْـمَـصَـيِّ الأَنَـامُ(٤)
أَقَـرَاراً أَلَـذُّ فَـوْقَ شَـرَارٍ
وَمَـرَامـاً أَبْـغِـي وَظُـلْـمِـي يُـرَامُ؟(٥)

(١) الحلم: العفو والغفران. اللئام، الواحد لئيم: الخسيس. يرى الشاعر أن من يُسوّغ عجزه ويُغلّفه بما يُدّعى حلماً، إنما هو خسيس ضعيف يلجأ إلى تمويه حقيقته بقالب من النبل الكاذب.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٥. يُردف الشاعر موضحاً ما بدأه من أن المرء الذي اعتاد على احتمال الظلم والمكاره ولم يعمل على الخلاص من ضعفه والتخلّص من ذلّه، فقد مات وهو على قيد الحياة، ومهما نزل بساحته من أذًى ومهانة لا يُحسّ؛ فالجراح مهما كانت غائرة في مشاعره وجسده لا يُحسّ لها ألماً، لقد ماتت فيه الأحاسيس والمشاعر.

(٣) الذرع: القدرة والطاقة. إنه صراع بين الشاعر والزمن الذي لم يزل يكيل للشاعر المصائب والويلات، ونفذت كلّ حيله لإضعاف عزيمته، فلم يُفلح، لأن الشاعر ذو عزيمة قوية وصبر عجيب في مواجهة جيل الزمن، فكان أن قدّر الكرام ما فيه من إرادة قوية وعلو همّة.

(٤) الأخمص: باطن القدم. الأنام: البشر. يُردف الشاعر أنه مهما بذل من جهد، فلم يبذل كلّ ما لديه من طاقة، ومع ذلك، فالقليل ممّا يبذله أكثر ممّا يبذله ممن حالفه الحظّ وأيّده التوفيق فحاز المناصب الرفيعة. وينمّ البيت عن تشوّق الشاعر وتكبّره على سائر الخلق.

(٥) الشرار: ما يتطاير من النيران. المرام: المطلوب. يُعلن الشاعر عن رفضه للذلّ بشتّى أنواعه، فلا يقبل الركون إلى شرر نار؛ فالظلم نار تحرق من يرمي نفسه بإرادته فيها، وهو يربأ بنفسه ذلك.

دُونَ أَنْ يَـشْـرَقَ الـحِـجَـازُ وَنَـجْـدٌ
وَالـعِـرَاقَـانِ بِـالـقَـنَـا وَالـشَّـامُ[١]
شَـرَقَ الـجَـوِّ بِـالـغُـبَـارِ إِذَا سَـا
رَ عَـلِـيُّ بْـنُ أَحْـمَـدَ الـقَـمْـقَـامُ[٢]
الأَدِيـبُ الـمُـهَـذَّبُ الأَصْـيَـدُ الـضَّـرْ
بُ الـذَّكِـيُّ الـجَـعْـدُ الـسَّـرِيُّ الـهُـمَـامُ[٣]
وَالَّـذِي رَيْـبُ دَهْـرِهِ مِـنْ أَسَـارَا
هُ وَمِـنْ حَـاسِـدِي يَـدَيْـهِ الـغَـمَـامُ[٤]
يَـتَـدَاوَى مِـنْ كَـثْـرَةِ الـمَـالِ بِـالإِقْـ
ـلَالِ جُـوْداً كَـأَنَّ مَـالاً سَـقَـامُ[٥]
حَـسَـنٌ، فِـي عُـيُـونِ أَعْـدائِـهِ، أَقْـ
ـبَـحُ مِـنْ ضَـيْـفِـهِ، رَأَتْـهُ الـسَّـوَامُ[٦]

(١) و (٢) يشرق: يغصّ. العراقان: عراق العرب والعجم. القمقام: السيد العظيم. يُردف الشاعر متمّماً فكرة مجابهة ظلمه بحرب شعواء تشمل بلاد الشام والعراقين فيغصان بها حيث تتصاعد الأغبرة وتخيّم على جوّ تلك الديار، وهنا يظهر ممدوح الشاعر علي بن أحمد الذي يأخذ بيده ليُعينه على النصر، وهو سيّد همام.

(٣) الأصيد: الملك الهمام المتواضع. الضرب: المجتهد في أموره. الجعد: الكريم. السري: النبيل. الهمام: الملك العظيم. شرع الشاعر بمدح علي بن أحمد، إنه أديب خلقاً وعلماً، وملك عظيم القدرة والقدر، فلا يتوانى في قضاء أموره، وهو جواد كريم ذكيّ القلب والفؤاد، مستنير العقل، سري ذو همّة عالية.

(٤) ريب الدهر: مصائبه. أساراه، الواحد أسير. يُردف الشاعر مدحه لممدوحه لقد تمكّن من القضاء على مصائب الدهر، فتخلّت عن محاربته، فإذا بالدهر يسير طوع إرادته، ووفق ما يُحبّ ويرضاه، فإذا به من أسراه، ويُضيف الشاعر تنويهاً بفيض كرم ممدوحه؛ إنه سبّاق في المكرمات، فإذا بالغمام يتحسّر حسداً وغيظاً من كرمه.

(٥) ومن صفات الممدوح أنه يُخفّف من تبعات اختزان الأموال التي تُسبب لجامعها الأمراض، فإذا به يُنفقها كيفما اتّفق في أيدي العفاة والمعوزين، وبذلك يتخلّص من الأدواء، فإذا به يبدو معافى، فلا يهتمّ لما بحوزته من الأموال.

(٦) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ١٥٠. ٢٨٨. السوام: الماشية. يُردف =

لَـوْ حَـمَـى سَـيِّـداً مِـنَ الـمَـوْتِ حَـام
لَـحَـمَـاهُ الإِجْـلَالُ وَالإِعْـظَـامُ[١]
وَعَـوَارٍ لَـوَامِـعٌ دِيـنُـهَـا الـحِـلُّ وَلَـكِـنَّ زِيَّـهَـا الإِحْـرَامُ[٢]
كُـتِـبَـتْ فِـي صَـحَـائِـفِ الـمَـجْـدِ: بِـسْـمٌ
ثُـمَّ قَـيْـسٌ، وَبَـعْـدَ قَـيْـسَ الـسَّـلَامُ[٣]
إِنَّـمَـا مُـرَّةُ بْـنُ عَـوْفِ بْـنِ سَـعْـدٍ
جَـمَـراتٌ لَا تَـشْـتَـهِـيـهَـا الـنَّـعَـامُ[٤]
لَـيْـلُـهَـا صُـبْـحُـهَـا مِـنَ الـنَّـارِ وَالإِصْـ
ـبَـاحُ لَـيْـلٌ مِـنَ الـدُّخَـانِ تِـمَـامُ[٥]

= الشاعر مدحه، فالممدوح يمتاز بالحسن في أعين أحبائه وعشيرته، لمزاياه الحميدة، كرماً وشجاعة وحسن خلق، وهو في نفس الوقت مكروه في أعين أعدائه لما يُسبّبه لهم من آلام وقتل وتشريد، وهو كذلك مكروه من قبل ما لديه من الماشية التي ترى جزرها في حال نزول أضيافه المكروهين من قبلها لعلمها بما يفعله بها الممدوح.

(١) و (٢) يُتابع الشاعر منوّهاً بعظمة قدر ممدوحه وعلوّ جلاله لو أن الموت ترك أحداً من البشر لكان الممدوح لهيبته وخوفه منه لما لديه من سيوف تعمل على حمايته وتأتمر بأمره، فتعمل قتلاً في نفوس الأعداء بلا ندم ولا تحرّج لأن زيها الإحرام، وقد جرّدت من أغمادها.

(٣) يُعرّج الشاعر على مدح قبيلة الشاعر التي سطّرت مجدها بعد البدء باسم اللّه الرحمن الرحيم، فارتبط ذكرها بالأمجاد وعظائم الأمور طوال الدهور، وإذا ما نزل في تلك القبيلة من دمار كان ذلك آخر الدهر، وعندئذٍ السلام على الكون.

(٤) و (٥) الجمرات من قبائل العرب هي التي قويت باتّحاد أفخاذها ولم تُحالف غيرها من القبائل. يحصر الشاعر بمصطلح الجمرات قبيلة الشاعر مرّة بن عوف بن سعد دون سواها لاتّحاد سائر أفخاذها في قتالهم ولا يستعينون بسواهم متحالفين في حروبهم، حتى إن النعام لا تقدر على الاقتراب منهم، لأنهم جمرات ليست لاهبة بالمفهوم الاحتراقي، بل لأنهم يحرقون قلوب أعدائهم في حروبهم ليلاً ونهاراً وهم يثيرون الغبار فينكسف نور الشمس نهاراً، وهم يُشعلون نيرانهم ليلاً لاستضافة من يطرقهم، فلذا يبدو ليلهم نهاراً ونهارهم ليلاً.

هِـمَـمٌ بَـلَّـغَـتْـكُـمُ رُتَـبَـاتٍ
قَـصُـرَتْ عَـنْ بُـلُـوغِـهَـا الأَوْهـامُ[١]
وَنُـفُـوسٌ إِذَا انْـبَـرَتْ لِـقِـتَـالٍ
نَـفِـدَتْ قَـبْـلَ يَـنْـفَـدُ الإِقْـدامُ[٢]
وَقُـلُـوبٌ مُـوَطَّـنَـاتٌ عَـلَـى الـرَّوْ
عِ كَـأَنَّ اقْـتِـحَـامَـهَـا اسْـتِـسْـلَامُ[٣]
قَـائِـدو كُـلِّ شَـطْـبَـةٍ وَحِـصَـانٍ
قَـدْ بَـرَاهَـا الإِسْـرَاجُ وَالإِلْـجَـامُ[٤]
يَـتَـعَـثَّـرْنَ بِـالـرُّؤُوسِ كَـمَـا مَـرَّ
بِـتَـاءَاتِ نُـطْـقِـهِ الـتَّـمْـتَـامُ[٥]

(١) يُردف الشاعر منوّهاً بعظمة المكانة التي جعلت قبيلة الممدوح تعتليها بجدارة لما امتازوا به من قُدرات وإمكانيات وعظائم الأمور التي تُعدّ من الخوارق بحيث لا تدركها الأوهام وتصوّرات كبار النفوس، فكيف بصغارها؟

(٢) انبرت: تعرّضت. نفد: انتهى. يُثني الشاعر على القوم إنهم قُدوة يقتدي بهم الناس، إنهم يُقدمون في الحرب ويُقاتلون أعداءهم قتال الأبطال ممَّا يُثير حماسة غيرهم على الاقتداء بهم، فإذا بالآخرين تضعف هممهم وينهارون، بينما يستمرّ مقاتلو القبيلة بحماسهم وإقدامهم في مقاتلة أعدائهم.

(٣) موطّنات: مصممات على الدخول في أمر ما. الروع: المخافة والحرب. الاقتحام: الدخول في الشيء بقوّة. الاستسلام: طلب الدخول في السلم. يمدح الشاعر قبيلة الممدوح، إنهم إذا ما تطلّب الأمر الاستعداد للحرب وطّنوا نفوسهم على خوضها بقوّة وتصميم وعزيمة، وهم يبدو عليهم كأنهم يسعون إلى الدخول في السلم لثقتهم بمنعتهم وضعف أعدائهم.

(٤) الشطبة من الأفراس: الطويلة. براها: أنحلها. يمدح الشاعر القوم بأنهم فرسان مجرّبون قد اعتادوا على اعتلاء أجود الجياد من الأفراس الطويلة التي تبدو هزيلة لكثرة إسراجها وإلجامها وعدوها في حروبهم المتعدّدة.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٦. يمدح الشاعر قبيلة الممدوح بكثرة فتكهم بأعدائهم، فإذا برؤوس هؤلاء لا تسمح بحرّية حركة الجياد التي تتعثر =

طَـالَ غِـشْـيَـانُـكَ الـكَـرِيـهَـةَ حَـتَّـى
قَـالَ فِـيـكَ الَّـذِي أَقُـولُ الـحُـسَـامُ(١)
وَكَـفَـتْـكَ الـصَّـفَـائِـحُ الـنَّـاسَ حَـتَّـى
قَـدْ كَـفَـتْـكَ الـصَّـفَـائِـحَ الأَقْـلَامُ(٢)
وَكَـفَـتْـكَ الـتَّـجَـارِبُ الـفِـكْـرَ حَـتَّـى
قَـدْ كَـفَـاكَ الـتَّـجَـارِبَ الإِلْـهَـامُ(٣)
فَـارِسٌ يَـشْـتَـرِي بِـرَازَكَ لِـلـفَـخْـ
ـرِ بِـقَـتْـلٍ مُـعَـجَّـلٍ لَا يُـلَامُ(٤)
نَـائِـلٌ مِـنْـكَ نَـظْـرَةً سَـاقَـهُ الـفَـقْـ
ـرُ عَـلَـيْـهِ لِـفَـقْـرِهِ إِنْـعَـامُ(٥)

= بها في الأرض كما لا يستطيع التمتام بحرّية النطق، فإذا به تقطع نطقه التاء إذا أراد أن ينطق، فلا يستطيع ذلك بحرّية.

(١) غشيانك: إتيانك. الكرائه، الواحدة كريهة: من أسماء الحرب. الحسام: السيف البتّار. يُشيد الشاعر بشجاعة ممدوحه، إنه بطل لا يني يُقاتل في كل وقت باستمرار دون كلل، فيخوض الحروب، وقول الشاعر يُؤيّد ما ينطق به سيفه، فقد تثلّم لكثرة استعماله وقتله الأبطال.

(٢) الصفائح من السيوف: العريضة. يروى «البأس» بدلاً من «الناس». كان لكثرة استعمال الممدوح الصفائح من السيوف العريضة أن تحامى الناس الممدوح فكفّوا ألسنتهم وأسلحتهم عن مقارعته لدوام انتصاره عليهم ودوام هزيمتهم في كلّ حرب كانوا الركن الأضعف فيها. لذا جاء دور الكلمة لتحلّ محل السيف، فتكون أداة استسلام الأعداء فيهتدون بعقولهم إلى مسالمة الممدوح لهيبته وشجاعته وحكمته.

(٣) يُردف الشاعر منوّهاً بحكمة الممدوح ورزانته، فقد عرك الحياة وكانت له تجارب صقلت موهبته وهذّبت تصرّفه وقوّت عقله، وكان اللّه تعالى يُلهمه في كلّ أمر يُرفع القيام به، فحال بينه وبين وقوعه في الأخطاء، مهما يكن نوعها.

(٤) البراز: المبارزة، يُنوّه الشاعر بعظمة ممدوحه وقوّته؛ فالأبطال الشجعان يتوافدون ليبارزوه في ميادين الكفاح، فإذا بهم يتهاوون صرعى بسيفه، ويكون ذلك مدعاة فخر ورثتهم أن آباءهم كانوا ضحايا بطولته وشجاعته.

(٥) ومن حسنات فقر بعض من يقصد الممدوح طلباً للمساعدة ورمي عار الفقر عنه أنه =

خَـيْـرُ أَعْـضَـائِـنَـا الـرُّؤُوسُ وَلَـكِـنْ
فَـضَـلَـتْـهَـا بِـقَـصْـدِكَ الأَقْـدَامُ[١]
قَـدْ لَـعَـمْـرِي أَقْـصَـرْتُ عَـنْـكَ، وَلِـلْـوَفْـ
ـدِ ازْدِحَـامٌ، وَلِـلْـعَـطَـايَـا ازْدِحَـامُ[٢]
خِـفْـتُ إِنْ صِـرْتُ فِـي يَـمِـيـنِـكَ أَنْ تَـأْ
خُـذَنِـي فِـي هِـبَـاتِـكَ الأَقْـوَامُ[٣]
وَمِـنَ الـرُّشْـدِ لَـمْ أَزُرْكَ عَـلَـى الـقُـرْ
بِ، عَـلَـى الـبُـعْـدِ يُـعْـرَفُ الإِلْـمَـامُ[٤]
وَمِـنَ الـخَـيْـرِ بُـطْءُ سَـيْـبِـكَ عَـنِّـي
أَسْـرَعُ الـسُّـحْـبِ فِـي الـمَـسِـيـرِ الـجَـهَـامُ[٥]

= ينعم بالنظر إلى الممدوح فيردّ عافيته، ويكون ذلك سبب سعادته وغناه.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٦. يُخاطب الشاعر ممدوحه أن المعلوم لدى سائر البشر أن أجلّ ما لديهم من أعضاء يأتي الرأس في مقدمتها لما يحتويه من حواسّ ودماغ، كلّها جعلت الإنسان مميّزاً عن سائر المخلوقات، ولكن تلك الحقيقة غيّرتها واقعة جديدة لم تكن بالحسبان فإذا بالأقدام التي تسعى إلى الممدوح تحلّ مكان الرأس في جلالة قدرها وعظيم قيمتها.

(٢) و (٣) أقصر عن الأمر: تركه مع قدرته على فعله. يعتذر الشاعر عن تأخّره، فلم يقصد ممدوحه خوفاً على نفسه، فالممدوح لا يستقرّ بيمناه مال، والوفود يتدافعون بكثرة، فإذا به يخاف أن يختطفه أحد الوفود على أنه هبة من الممدوح.

(٤) الرشد: العقل والاتزان. الإلمام: الزيارة. يُردف الشاعر متمّماً سبب اعتذاره أنه لم يزرْه، وقد كان قريباً من دياره، والوفود لا تني تتردّد عليه، فكان عليه أن ينتظر قليلاً، ورغم بعد الشقّة بينهما، فإنه الآن بين يدي ممدوحه، فيكون للزيارة معنًى أكبر دلالة وأشدّ تأثيراً.

(٥) ورد البيت في: معاهد التنصيص، للعباسي: ٢: ١٣. البطء: التأخّر. السيب: العطاء. الجهام: السحاب الذي لا ماء فيه. يلفت الشاعر نظر الممدوح مخافة تأخّر عطائه فإذا به غزير يحمل معه الخير الكثير، لذا فالإبطاء في هذه الحالة خير من الإسراع تماماً كالسحب المسرعة التي لا تحمل فيها ماءً.

قُــلْ فَــكَــمْ مِــنْ جَــوَاهِــرٍ بِــنِــظَــامٍ
وُدُّهَــا أَنَّــهَــا بِــفِــيــكَ كَــلَامُ[١]

هَــابَــكَ الــلَّــيْــلُ وَالــنَّــهَــارُ فَــلَــوْ تَــنْــ
ـهَــاهُــمَــا لَــمْ تَــجُــزْ بِــكَ الأَيَّــامُ[٢]

حَــسْــبُــكَ الــلَّــهُ مَــا تَــضِــلُّ عَــنِ الــحَــ
ـقِّ، وَلَا يَــهْــتَــدِي إِلَــيْــكَ أَثَــامُ[٣]

لِــمَ لَا تَــحْــذَرُ الــعَــوَاقِــبَ فِــي غَــيْــ
ـرِ الــدَّنَــايَــا، أَمَــا عَــلَــيْــكَ حَــرَامُ؟[٤]

كَــمْ حَــبِــيــبٍ لَا عُــذْرَ لِــلَّــوْمِ فِــيــهِ
لَــكَ فِــيــهِ مِــنَ الــتُّــقَــى لُــوَّامُ؟[٥]

رَفَــعَــتْ قَــدْرَكَ الــنَّــزَاهَــةُ عَــنْــهُ
وَثَــنَــتْ قَــلْــبَــكَ الــمَــسَــاعِــي الــجِــسَــامُ[٦]

---

(١) النظام: خيط العقد. يُنوّه الشاعر بحسن منطق ممدوحه، فإذا بمنطقه ينتظم كأنه عقد نظمت جواهره بنسق نادر الوجود يتسلسل فيه الكلم؛ فإذا بكل مفردة تقع في موقعها، فتتقبّلها الآذان صاغية كأنها زغردة وموسيقى محبّبة إلى النفوس والقلوب.

(٢) هابك: احترمك وأجلك. لم تجز: لم تمرّ. ومن مبالغات الشاعر أن الليل والنهار يهابان الممدوح وينزلان على إرادته، فلو أمرهما ألّا يمرّا به لالتزما بأمره، وتوقّفا، وبطلت حركة الزمن.

(٣) يُنوّه الشاعر بتقوى ممدوحه، فاللّه سبحانه وتعالى يكفيه الوقوع في الإثم والوقوع في الأخطاء الجسيمة، ولذا فلن يضلّ لأن اللّه يرعاه ويقيه الوقوع في الزلل، لأنه على الحقّ ويسير معه حيثما سار، فلا يأتي بما يدلّ على تهوّر، لأن المولى عصمه عن الفواحش والرذائل.

(٤) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ٢٦١. يروى «حرام» بدلاً من «الدنايا». يُخاطب الشاعر ممدوحه، ولقد رآه لا يهاب المخاطر ويرمي بنفسه في أتونها لشجاعته وقوّته، وهو في نفس الوقت يجتنب المنكرات والفواحش، وهذا يمدح عليه ممّا ينمّ عن تقاه وشدّة حرصه مخافة الوقوع في المحرمات.

(٥) و (٦) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ٢٦١. يُنوّه الشاعر بتقوى ممدوحه، لقد =

إِنَّ بَـعْـضـاً مِـنَ الـقَـرِيـضِ هُـذَاءٌ
لَـيْـسَ شَـيـئـاً وَبَـعـضَـهُ أَحْـكَـامُ[١]
مِـنْـهُ مـا يَـجْـلُـبُ الـبَـرَاعَـةُ وَالـفَـضْـلَ وَمِـنْـهُ مَـا يَـجْـلُـبُ الـبِـرْسَـامُ[٢]

ولا قابلاً إلا لخالقه حكما

ورد على أبي الطيب كتاب من جدته لأمه تشكو شوقها إليه وطول غيبته عنها، فتوجه نحو العراق ولم يمكنه وصول الكوفة على حالته تلك فانحدر إلى بغداد. وكانت جدته قد يئست منه فكتب إليها كتاباً يسألها المسير إليه فقبلت كتابه وحمت لوقتها سروراً به وغلب الفرح على قلبها فقتلها، فقال يرثيها:

[الطويل]

أَلَا لَا أُرِي الْأَحْـدَاثَ مَـدْحـاً وَلَا ذَمَّـا
فـمـا بَـطْـشُـهـا جَـهْـلاً وَلَا كَـفُّـهـا حِـلْـمَـا[٣]

= أهمل مُحبّة له جميلة الحسن تتدفّق شباباً ونضارة، وليس في ذلك اقتراف الآثام، وهو لا يلام على ذلك؛ إنها التقوى العاصم الذي استمسك به الممدوح، والترفّع عن صغائر الأمور وتفاهتها، فكانت بمثابة الرادع يردعه عن المنكرات، واللائم الذي يصدّه عن الوقوع في الأخطاء، فتنزّه عن كلّ شائبة.

(١) و (٢) القريض: الشعر. الهذاء: التكلم بما هو غير معقول. يُعطي الشاعر رأياً نقدياً للشعر عامة؛ فبعضه كلام لا طائل منه ولا رواء فيه، فهو عبارة عن هذيان نطق به أحدهم، ويُظنّ أنه من الشعر. وثمّة نوع آخر نابع من تجربة حقيقية ومعاناة نفس تألّمت، فكانت الكلمة شعراً ينبع من القلب والعقل والشعور، فطار بها الخلود عبر الأزمان والأمكنة؛ إنه الشعر الحقيقي، وإنه مرض جنوني لا يستحقّ التفاتة، وسرعان ما تمحوه الذاكرة من الوجود.

(٣) الأحداث: مصائب الدهر وويلاته. البطش: الفتك بقوّة وعنف. إنها نظرة لمظاهر مجريات الأحداث التي يمرّ بها المرء، لذا لا ينفع الفرح إذا سرّته الأحداث أو آلمته، لأن الشعور في كلا الحالين يتبخّر كسراب يبدو من بعيد ثم يختفي، وما يبدو من عنف بطشها لا ينمّ عن جهل منها، وحتى توقّفها عن الإضرار بمصالح البشر لا يدلّ على حِلم أصيل نابع من إرادتها، فثمّة محرك لها خفيّ يُحركها كيف يشاء، ولذا فإنها لا تُلام على ما يبدو منها.